الأداة البلاغية في إعجاز الباقلاني

مدني مدور
المكتبة المركزية
جامعة باتنة

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة جديدة لكتاب الباقلاني وذلك وفق رؤية نسقية تجسدت من خلال التوظيف المهيمن للأداة البلاغية، لنقف بذلك على براعة النص القرآني مقابل تأخر الأنساق الإبداعية البشرية. وعليه ستوفر لنا هذه الدراسة المركزة أكبر قدر ممكن من الموضوعية في فهم الإعجاز.إضافة إلى إبعاد فكرة الصرفة، وعدم الالتزام في اختيار النصوص الشعرية التي أقحمت في صلب الدراسة بزمان أو مكان معينين.

Résumé :

Cette étude propose une nouvelle lecture de l'œuvre d'Al-Bakilani. Il y est question du fonctionnement du système dominant de l'outil rhétorique dans la réalisation de « Al Ijaz» (caractère inimitable du coran).

L'étude conçue dans une perspective de comparaison, tend à faire ressortir les éléments poétiques, rhétoriques et stylistiques qui ont été à l'origine de cette perfection et de ce miracle du langage.

مدخل:

لقد كان حدثا هاماحينها، لأنه تمثل في نقلة كلية من دراسات سياقية إلى دراسات نسقية، وكان ذلك على يد المدرسة الشكلانية[1]التي مهدت السبيل أمام البنيوية[2] والشعرية، اللتين بدورهما تمخضت عنهما، نظرية النص لـ:"بارت" والتفكيكية[3]لـ:"دريدا"، لتستفيد كل من النظريتين على حدة من دراسات لسانية سالفة، وأخرى سميائية إلى جانب التناص كآلية.ولأن أيا من هذه الدراسات المتفرعة ليس مقصدي، وإنما انجذبت خلف وميض فكرة النسقية الباهر، لما لهذا المنهج المنبثق من موضوعية معلنة سلفا. وإيمانا مني بغناء تراثنا العربي والأدبي منه خاصة، من جهة الأعمال الإنشائية وما أعقبها من أعمال وصفية، حيث تقوم هذه الأخيرة منها على فروض تنظيرية شتى تندرج ضمن النسق، فهذا عبد الله ابن المعتز:(يتمثل إنجازه في وضعه في البديع سجلا لأهم الأدوات التعبيرية التي تميز النص الشعري في التراث العربي. وقد كان ذوقه دليله في سبيل تحقيق هذه الغاية وهذا يعني أيضا ترجيحا لكفة الحس والإيقاع على حساب التنظير والتقعيد، ومع هذا فإن الخطوة الأولى كانت صادقة، بما فيه الكفاية، في رصد مميزات النص الشعري... وعليه يتضح أن دور ابن المعتز يتمثل في تعيين الموضوع الذي يخص الناقد والبلاغي هذا التعيين للموضوع المتميز عن مواضيع العلوم الأخرى هو في حد ذاته اكتشاف بالغ الأهمية، ومما يكسب هذه الخطوة صفة الموضوعية الاهتمام بمعطيات نصية لا تستند إلى القيم النفسية أو الأخلاقية أو التاريخية.)[4] وعلى هذا الأساس(واجه أصحاب المدرسة الإعجازية النص القرآني في أول الأمر، بالأدوات النقدية التي استمدوها من التراث النقدي العربي, لكنهم سرعان ما عزفوا عنها بعد أن كشفوا قصورها وعدم قدرتها على فك شفرات النص. لذلك وجدناهم راحوا يستخرجون الأدوات من النص القرآني نفسه الذي أمدهم بكثير من الفكر والمفاهيم النقدية التي ساعدت في تغيير النظرة إلى الأدب وبالتالي في نشوء حركة نقدية متميزة كان النص القرآني والسياق المعرفي والحضاري منبعها الأول)[5].

ولأن اللغة هي المادة الأولية التي يتشكل ضمن وحداتها الجنس الأدبي، سيهمني هنا على وجه التحديد"الشعر"كموروث عرفت هيمنته الأدبية طيلة العصور المختلفة ما جعل"الجاحظ"[6]يخص به العرب دون سائر الأجناس كما يتناوله أحدهم

ضمن هذه الدراسة المقصودة. وعليه لا يأخذنا العجب إذا ما علمنا أن التحدي الرباني وقع على هذا الشكل الأدبي ومثيله، وقد حمله الأوائل من أهل الجاهلية الضاربين في أغوار الفصاحة والبراعة في صنوف البيان والبلاغة، فكان التحدي من خلال القرآن الكريم.

عند هذا الحد أجد أن ملامح الدراسة بدأت تتكشف. ذلك أنني سأسعى من خلال التراث خلف مقاربة نسقية تكفل لنا الموضوعية التامة والرؤية الدقيقة في ظل النقد تمييزا وتفسيرا وحكما، وذلك بين البيان البشري والبيان الإلهي.وقد وجدت أن الباقلاني يحقق لي هذا الطلب في ظل"إعجاز القرآن" خاصة أنه أول من بادر إلى هذه الفكرة محكما في دراسته النسق البلاغي وحتى نستقرأ جزئيات هذا البحث ونمعن النظر في فصوله النظرية والتطبيقية لابد أن نقف في البداية عند الدوافع التي أوحت له بهذه الدراسة وفق هذه الكيفية.

في مقدمة الكتاب يطلعنا "الباقلاني" عن الدافع الأول والأخير الذي جعله يسارع إلى تبيان إعجاز القرآن وتحديد إطاره، وقد تمثل ذلك في قيام بعضهم بإلغاء الفوارق النسقية بين الصناعة الأدمية والكلام الرباني يقول: (وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدل ببعض الأشعار ويوازن بينه – أي القرآن– وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه.)[7]، لأجل هذه الحقيقة سيبدي المؤلف قلقا حيال هؤلاء المفترين لأن أشباههم من العهد الأول ورغم تضلعهم في البيان لن تكون غير هداية الرحمن لهم مردا إلى الجادة. وعقب هذا يستعرض لنا محاور الدراسات القرآنية التي سبق إليها (يبسطون القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الحبر ودقيق للكلام في الأعراض، وكثير من بديع الإعراب وغامض للنحو.)[8]، ولأنه لا يرغب في خوض هذا تراه يكشف لنا عن قصده الذي ينحصر في:(القول في تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت في جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب.)[9] ويكون هذا:(ليعرف عظم محل القرآن وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه.)[10]، وبه نكون قد وقفنا على لب هذه الدراسة من الناحية الأدبية خصوصا، وحتى تكتمل الصورة لا بد من التفصيل.

1. تفرد القرآن:

قبل الوقوف على كنه الإعجاز القرآني الذي سينظر له الباقلاني على غرار من سبقه يجدر بنا في البداية أن نمعن النظر في حدود الشكل القرآني من خلال مستويات عدة ومدى تقاربها أو تباعدها مع الأنساق الإبداعية السائدة إن أول هذه المستويات التي ينبغي رصدها لأجل الغرض المذكور، ستخص الشكل الخارجي للكلام الرباني، حتى نعلم مقدار المسافة بين هذه الأطر بدءا بالشعر.

إن المؤلف يعرض لنا أمثلة شتى لأوزان شعرية تضمنها القرآن من بحور مختلفة ما أدى ببعض الشعراء إلى تضمينها قصائدهم وهو مع ذلك يعود لنفي الشعر عن القرآن منطلقا من حجة منطقية قوامها أن القرآن لو كان حق[11]كما ذكر بعض معاصريه أنه لو شعرا لكان الأوائل أقدر وأسرع إلى المبادرة بالمعارضة ثم ينتقل إلى الحجج المعرفية وهذه ستخص عمود الشعر وفق ما حدده نقاد العصور المختلفة حيث يقول:(وهو أنهم قالوا: أن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا واقل الشعر بيتان فصاعدا ولذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية وقالوا أيضا أن ما كان على وزن بيتين إلا أنه يختلف رويها وقافيتهما فليس بشعر)[12]، ويتبع سلسلة إيراد الحجج منطلقا من الحدود التي رسمها السلف للشعر حيث لا يعد الرجز شعرا:(أن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه)[13]ولا يتوقف المؤلف عند هذا الحد بل يعرض لنا حدود شكل المقطوعة وما يعد شعرا وأدناه أربعة أبيات متفقة الوزن والقافية والروي وذلك ما لم يرد في القرآن مطلقا ولا يقف عند هذا الحد بل يرد على زعم بعضهم على أن القرآن موزون لكنه ليس شعرا، فنجده يقول:(إن القرآن خارج عن الوزن الذي أظهرنا وتتم فائدته بالخروج عنه، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه).[14].إذن فالعبرة بالمضمون لا بالشكل والقرآن بهذا ليس شعرا كما أثبت المؤلف معرفة وعرفا.

والانتقال بعد هذا وضمن الشكل الخارجي دائما، إلى النثر،حيث أن نفي الأوزان عن القرآن اقتضى نفي الشعر وعليه كما أرى سيكون نفي السجع كخاصية لازمت أشكال النثر القديم"الرسالة"و"الخطابة"باتفاق الدارسين فهي نفي للنثر.ونجد هنا أن شوقي ضيف لدى حديثه عن أسلوب ابن المقفع في الكتابة النثرية الذي يعتبره قد هيمن على الأساليب بعد ذلك وان السجع فيه يتحقق طوعا يقول:(وقد تميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد. الألفاظ بقدر المعاني لا تنقص

ولا تزيد.والمعاني تؤدى أداء فصيحا رصينا، دون قصد إلى الجمال التعبيري من سجع أو ترادف صوتي).[15]

نتأكد من صواب هذه الفكرة من خلال كلام الباقلاني حيث استعرض المؤيدين والمفندين للسجع في البداية إلى أن يقول:(لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال سجعا معجز لجاز لهم أن يقولوا شعرا معجزا)[16]ومن أدلة المؤلف على انتفاء السجع عن القرآن، قرب هذا الشكل من أسجاع الكهان والرسول (صلى الله عليه وسلم) يذمه على هذا الوجه، ما يجعل شكل السجع الوارد في القرآن لا يعد سجعا وبمنطق لغوي يرى المؤلف ما مفاده:(أن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع من القرآن، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ)[17]، أما عن ورود الوجهين من السجع، المشار إليهما في هذه الفقرة فإن المؤلف يعد ذلك خارجا عن غرض كتابه، وأما لدى حديثه عن توالي الفواصل بشكل غير مقصود وهو إلى ذلك تميز، ويكون الحاصل كما يرى"الباقلاني":(أن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا)[18]، ولهذا على ما هو الحال مع قليل الشعر.ولما كان للسجع ضوابط فإن عدم التزام القرآن لها، سيعد خارجا عن السجع ولو أن واقع الأمر كان حقا مسجوعا ما كان أن يعجز العربي في معارضته.ثم يضيف أن الأمر لو اقتصر على السجع ما كانوا ليطلقوا على القرآن سحرا. والشعر يتفق في أبياته من خلال حرف الروي وهولا يعد سجعا، وينتهي بذلك المؤلف إلى القول:(وربما سمي ذلك فواصل وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها.[19]

وردا على ادعاء تقديم هارون وموسى رغم مكانة موسى، وذلك وفق أولوية التسجيع، فإن المؤلف يعدها براعة في إعادة القصة وفق ألفاظ مختلفة للمعنى ذاته بترتيب وتركيب مغاير تحديا.وإلى هذا سيوجه صاحب الكتاب نقدا لاذعا للجاحظ الذي يعد من كبار كتاب النثر بقوله:(أما كلام الجاحظ في أثناء ذلك فسطور قليلة، وألفاظ يسيرة، هذا لأنه يعتمد على كلام غيره، ما يجعل أسلوبه غير ذي بال)[20]وانتهاء من هذا الفصل فإننا نخلص إلى أن المؤلف يرفض اعتبار القرآن خليطا من طرق العرب في صنائعها، نظما ونثرا وما انطوى تحتهما من

تفرعات، وإنما يعتبره متفردا كي تنتظم الصورة لدينا أكثر فإنني سأحاول الانتقال إلى مستوى آخر والذي سيتمثل في الشكل الداخلي، حيث يتكون من الأنواع المختلفة للبديع كوحدات تعطي للشكل جاذبية في ذاته وقد وضع ابن المعتز هذه الأنماط حتى نكُون على دراية بالمصطلح أكثر.

في هذا الفصل سيمثل المؤلف للأنواع البلاغية المختلفة التي عدها ابن المعتز[21] ضمن البديع، من مطابقة وتشبيه، ومقابلة، ومبالغة، وغلو...، وذلك كله من خلال أشعار العرب، ليقرن كل نوع بتمثيلات من القرآن دون شرح.وهو إلى ذلك سيتجاوز في أشعار العرب الزمان والمكان، ويخرج عن الطباع وتصنيفاتها فنجد حينها أنفسنا أمام شعراء من الجاهلية إلى الزمن العباسي يتساوى فيهم البدوي والحضري صاحب شعر مطبوع أو صاحب شعر مصنوع متبعا في إبداعه أو تابعا، بل تجاوز حتى الجنس فجاء بأشعار العرب الأقحاح والمولدين من الشعوبية على السواء ولا يهمنا من هذا كله إلا ذلك التعليق الختامي عن هذه الأنماط الإبداعية في ظل القرآن واستيفائها لشروط التحكم في أنماط البديع. حيث أن صاحب الكتاب، لا يعد البديع سبيلا إلى معرفة إعجاز القرآن الذي ادعوه في الشعر، والسبب عنده كما يقول:(أن ذلك الفن ليس فيه ما يفرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له)[22]، وبعد هذا التبرير يفصل القول في الدربة، فنعلم سبب حشده لشعر الشعراء دون تميز، وكيف أن اللاحق يستفيد من السابق وقد يفوقه جودة في معناه، وهنا كانت فكرة السرقات الأدبية، وأن الدربة الطويلة وحدها الكفيلة عن البراعة في الشعر، كان ذلك أوفي النثر. وأما النظم القرآني فإنه لن يكون تابعا، ولا متبعا، وهذا لتفرده على مستوى هذه البنية، ولا يمنع هنا أن يقع له التصرف في هذه الأنماط البلاغية.

سعيا وراء مستويات أخرى للكلام، كما أوردها الباقلاني، سنعرض هذه المرة للبنية العميقة، التي ستتمحور حول أنماط البلاغة الحقيقية عند المؤلف كما يرى، وقد أعطيتها صفة العمق، لأنها تتعلق أساسا بجزئيات دقيقة تخرج بنا[23] من اللغة الرمزية إلى اللغة الانفعالية. وإلى ذلك فإن صاحب الكتاب يورد هذه الأنماط بعد أن يكون قد خاض في نظم القرآن شرحا وتفصيلا، حتى تكون هنا هذه الأداة البلاغية وجها للفصل والحسم، بين البيانين.

يحتكم الباقلاني إلى كون البلاغة عشرة أقسام، كما يذكر بعض أهل الكلام[24] والأدب عنده. فأما الوجه الأول: (فالإيجاز وإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الكامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر...)[25]، وأما الوجه الثاني فهو:(التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل كقوله تعالى:*"والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا*آية 39 سورة النور، وقد حشد المؤلف هنا جملة من التشابيه المستوفاة الأركان. ويكون الوجه الثالث هي: (الاستعارة وهي بيان التشبيه كقوله تعالى:"* بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق *آية -18- سورة الأنبياء فالدمغ والقذف مستعار، وقد عرض أمثلة للغرض كثيرة. ويكون الوجه الآخر هو:(التلاؤم، وهو تعديل الحروف في التأليف، وهو نقيض التنافر... والتلاؤم على ضربين أحدهما في الطبقة الوسطى، والمتلائم في الطبقة العليا القرآن)، وهو جلي الإعجاز. والوجه التالي يمثل:(الفواصل، وهي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة. والإسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى، والفواصل تابعة للمعاني... ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة، ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة، لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن)[26].أما الوجه الذي يليه فهو:(التجانس، فإن بيانه بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين، مزاوجة ومناسبة، ومثل النوع الأول قوله تعالى:" ومكروا ومكر الله* "آية -54- سورة آل عمران أما النوع الثاني كقوله تعالى:"* يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * "آية-37-سورة النور)[27]، وهذه سيجعلها البلغاء بعد ذلك جناسا تاما وناقصا. أما الوجه السابع فهو(التصريف وهو تصريف الكلام في المعاني لتصريفه في الدلالات المختلفة، كتصريف الملك في معاني الصفات فصرف في معنى، مالك وملك وذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك، والتملك والأملاك...)[28]فأما الذي يليه:(التضمين، وهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أوصفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهين: تضمين توجيه البنية كقولنا:معلوم، يوجب أنه لا بد من عالم. وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به كالصفة بضارب يدل على مضروب)[29]. ويحصل الوجه التالي في (المبالغة، وهي الدلالة على كثرة المعنى)[30]، وأما آخر هذه الوجوه فهو:(حسن البيان، وهو على أربعة أقسام، كلام، حال، إشارة، علامة، ويقع التفاضل في البيان)[31]. وهو بعدها لم يفصل القول في هذه الأقسام.

لكل هذه الأنماط يعرض لنا صاحب كتاب أمثله من القرآن غاية في البراعة، ويخلص إلى أن الإعجاز لا يحصل به د بلاغة وفق الأوجه المذكورة بل ولا يحصل بما يعده بعضهم بلاغة في البديع، لأن الوجوه برمتها سبيلها التعلم، وإذا أقررنا بتحقق الإعجاز ضمن هذه الأنماط فإن ذلك لن يقتصر على نمط واحد فقط بل تجتمع في الآية الواحدة أوجه عدة يقول:(ننكر أن يقول قائل أن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز)[32].

هذا ينتهي بالمؤلف إلى القول:(وأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وابلغه)[33]. عند هذا الحد نجد أن المؤلف قد استطاع أن يفصل لنا بين الأسلوبين القرآني منه، والآدمي، وذلك من خلال الأداة البلاغية تلك التي عدها من صنفها أو شبيهتها التي لم يعتبرها كذلك وقد تمثلت عنده في البديع وبهذا يكون السبيل إلى إعجاز القرآن قد بانت جملة من ملامحه.

2-جوهر الإعجاز

إن تأخر الأنساق الإبداعية المعروفة عن القرآن الكريم، كنسق متفرد، سيحيلنا رأسا على إعجازه، الذي يشير إليه هذا "الذكر" في أكثر من موضوع، حيث أن الإعجاز سيكشف عنه الكلام الرباني في نفسه، متجاوزا به الكتب السماوية المتقدمة لتلتقي في إعجاز الإخبار عن الغيب. ولأن الإعجاز واقع فإن القرآن تحدى معارضيه من الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو تظافروا، فكان العجز وامتنعت المعارضة (فمن هذه الناحية نستطيع أن نطمئن إلى أن القران لم يجد له مقلدا ولم يجد له تلميذا هو وحيد في بابه لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه)[34]، وهنا يرد الباقلاني عن أولائك اللذين رأوا أن العجز عن المعارضة كان نتيجة المنع بقوله:(ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة إنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع معجزا)[35]، وإلى هذا فإن المؤلف يجعل سبيل الاهتداء إلى المعجز في هذا الكلام، للقدماء سليقة وللبلغاء دربة. بل ولهم ينسب افتراض التحدي الممتنع. ومن هنا نعرف مكانة البلاغة عنده إن صاحب الكتاب يتجاوز إعجاز الإخبار بالغيب وكون الموحي إليه(صلى الله عليه وسلام) إلى الوجه الثالث من الإعجاز وهو أن القرآن كما يقول:(بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه)[36] ، ومنه ستتفرد جملته، ليتفرد بها نظم الأسلوب، ويستمر حديث الباقلاني ليقول:(ومنها أنه

ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول. وعلى هذا القدر)[37]، هذا الطول وتنوع المضامين، من قصص، وشريعة، ووعد، ووعيد... وأمور تطول وتتنوع لا يحصل على مستواها أي اختلال خلاف الكلام الآدمي كما يخبر سبحانه وتعالى:"*ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا* "آية -82- سورة النساء ومن جهة الشكل البلاغي فإن التفوق سيحصل محصورا متى تعلق الأمر بإبداع الشعراء يقول المؤلف:(أما البليغ فإنه قد يتفوق في غرض واحد دون سائر الأغراض)[38].

وإذا حدث التفاوت في الفصل والوصل، ومن عد لديهم من كبار الشعراء وهو البحتري، يضيف هنا المؤلف:(القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب)[39]، وبه سيقع النظم في القرآن موقعا متفردا في البلاغة تخرج من عادة كلام الإنس والجن. يقول تعالى:"*قل لان اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا* ".آية-88- سورة الإسراء وإلى هذا فإن القرآن اشتمل جميع أساليب الخطاب من مجاز وإيجاز وتحقيق. ومنه ستكون كما يؤكد الباقلاني (المعاني التي يتضمن في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتياجات في أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمنع ذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تغير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة)[40].

لا يزال المؤلف يكشف لنا عن براعة أسلوب القرآن وتفرده حتى ينتهي بنا إلى الكلمة، وكيف أنها في القرآن تشكل وحدة تخرج عن المألوف، بل لا يتوقف عند هذا الحد حتى يظهر لنا إعجازا راقيا في توظيف الحروف ورغم هذه الرفعة كلها فإن أسلوب القرآن سهل بسيط يخرج عن الغريب الوحشي، لكنه مع ذلك ممتنع. من هذا التفاوت البين، بين الأساليب الإبداعية المتداولة وأسلوب القرآن لن يكون من العسير على أحدنا أن يلمس سعة المسافة وبعد الشقة بين هذا الكلام الأرضي وذلك النظم السماوي، وبه تتجلى الحلقة المفقودة [41]، وسيتحقق هذا أكثر متى وقفنا على النظم القرآني كما فصله المؤلف.

يفصل المؤلف الحديث في هذا الشأن وامتناع وجه واحد من الموازنة فيه بالقول:(فإن خيل إليك أو شبه عليك وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات ولذلك قالوا له (صلى الله عليه وسلم) هو شاعر أو ساحر، وسول إليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب وأبرع وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين. أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم والأدب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في اللغة يقول: أن الكلام المنثور يأتي فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يأتي في الشعر، لأن الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهاءه ويصده عن تصرفه على سننه وحضره من أن يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك وذكر أنه لا يمتنع في أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة وأبدع وأتى أسباب البلاغة، ويشهد عندي للقول الأخير- يقول المؤلف- أن معظم براعة كلام العرب من الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه وإن كان قد أحدثت البراعة على حد لم يعهد في سالف أيام العرب ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وإن ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه... وإذا كانت الفصاحة في قول الشعر أولم تكن، وتبين أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم ويتقدم في بلاغته على كل قول)[42].

إن النظم هو الجوهر المكنون الذي سيتفرد به القرآن، ويجدر بي أن أتيح القول فيه للمؤلف حتى يفصل فيه شرحا وتمثيلا:(فأنظر إن شئت إلى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الوصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع، قوله تعالى:"وكذلك أوحينا إ ليك روحا من أمرنا* "آية -52- سورة الشورى يدل على صدوره من الربوبية ويبين عن وروده من الألوهية، وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميزت عن جميعه... وكذلك قوله:"* ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا*"آية-52- سورة الشورى، فجعله روحا ولأنه يحي الخلق فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نورا لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته ووقف وقوف الاسترشاد به على إرادته وبين أنه لم يمكن ليهتدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه. ويقول عز من قائل:"***وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور***" آية-53-سورة الشورى فانظر إلى الكلمات الثلاثة الكلمتان الأوليتان مؤتلفتان وقوله:(ألا إلى الله تصير الأمور)، كلمة منفصلة مباينة للأولى

قد صيرها شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف وألطف انتظاما من الحديث الملائم, وبهذا يبين فضل القرآن وتظهر فصاحته وبلاغته)[43].وفي هذا الصدد يقول طه حسين:(للقران وجه أخر من وجوه الإعجاز لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبي (ص) ولا بعده ذلك هو نظم القرآن أي أسلوبه في نظم المعاني التي أراد الله أن تؤدى إلى الناس .لم يؤد إليهم هذه المعاني شعرا ولم يؤدها إليهم نثرا أيضا وإنما أداها على مذهب مقصور عليه وفي أسلوب خاص به لم يسبق إليه ولم يلحق فيه)[44] . (وتأمل قوله تعالى: "* فالق الإصباح وجاعل الليل مسكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم* "اية-96- سورة الانعام انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها واحتج بها على ظهور ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة وبمنفردها درة وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ونفاذ القهر ويتجلى في بهجة القدر ويتجلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة والسلامة إلى المتانة والرونق الصافي والبهاء الضافي ولست أقول -يقول المؤلف – أن شمل الإطباق المليح والإيجاز اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر، لأن العجيب ما بيناه من إنفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة أووجه قصيدة أو فقرة، إذا ألفت ازدادت حسنا وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا)[45].

وهنا نجد طه حسين يقول:(وامتاز القرآن بروعة البيان واختص بالملائمة بين المعاني والألفاظ والأساليب وهنالك اختلاف بين بعض السور في أداء المعاني الواحدة أو المتقاربة اشد التقارب بالآيات الطوال المبسوطة حينا وبالآيات القصار الخاطفة حينا أخر)[46].ويواصل الباقلاني:(ثم أقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها وراعي ما فيها من براهينها وقصصها وتأمل السورة التي يذكر فيها النمل، في كل كلمة وفصلا فصلا.

بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال عز وجل:(*وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم*) اية-6- سورة النمل. ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام

– وان رأى نارا فقال لأهله:(*امكثوا إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو جذوة من نار لعلكم تصطلون*). اية-29- سورة القصص وقال في طه في هذه القصة:(*لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى*). اية -10- سورة طه وفي موضع آخر:(*لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون*).لقد تصرف في

وجوه واتى على ذكر القصّة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ولهذا قال:(*فليأتوا بحديث مثله*). آية -34- سورة الطور ليكون ابلغ في تعجيزهم واظهر للحجة عليهم. وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها ثم قال:(*فلما جاء نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين*).آية -8- سورة النمل فانظر -يقول المؤلف- إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء وكيف انتظم مع الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قبل العصا حية وجعلها دليلا يدلها عليه ومعجزة تهديه إليه، انظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن وفيما تتضمنه المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء من غير سوء ثم انظر في آية ثم كلمة هل تجدها كما وصفنا من بديع النظم وعجيب الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية فكيف إذا قرنتها بأخواتها وضانتها وذواتها تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها، ثم من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير ملل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا بديع التأليف وبليغ التنزيل)[47]. هذا وان القرآن بنظمه دقيق الوصف في أوجز عبارة، بديع التصوير في اقصر الجمل وعن التصوير يقول جابر عصفور:(لو نظرنا إلى الأسلوب القرآني كله على انه أسلوب تصويري يقوم على مخاطبة الخيال والوجدان مثلما يقوم على مخاطبة العقل والروية، ولا فاصل بين ذلك كله في التصوير الأدبي أن مثل هذه النظرة الشاملة إلى الأسلوب القرآني- لاشك- تثري فكرة التصوير الأدبي ويمكن أن تبرز طبيعته الحسنة إبرازا انضج)[48]، ودليل النظم تكيف القران مع كل موضوع يطرقه شريعة أو أحكاما، ويتحقق إعجازه من خلال الكلمات القليلة التي ينهي بها الحكم، وحججه وحديثه عن الألوهية بهذا المقدار من الكلمات فترى كل ذلك في غاية البراعة مع تناسق الغرض المقصود لا يخرج عنه. ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه وفي كل نهج يسلكه وطريقا يأخذه فيه وباب يتهجم عليه ووجه يؤمه على ما وصفه الله تعالى به لا يتفاوت كما قال:"* ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا*) 49) آية-82-سورة النساء- ولا يخرج عن تشابهه وتماثله كما قال: "* قرآنا عربيا غير ذي عوج*"آية-28- سورة الزمر ولا يخرج عن إبانته كما قال عز من قائل: " بلسان عربي مبين* "آية-195-سورة الشعراء. وهذا ما يذهب إليه طه حسين في قوله:(وما نجده فيها من التنوع أن دل على شيء فإنما

يدل على أن القرآن قد انزل ليتلى ويتلى في صوت يسمع. ذلك يظهر تنوع الآيات في خواتيمها وفواصلها. ويظهر ألوانا مختلفة تروع باختلافهَا من الموسيقى. فإذا أضيف ذلك إلى عذوبة الألفاظ واتساق النظم واختلاف الأسلوب باختلاف المقامات شدة ولينا وترغيبا وترهيبا وتبشيرا وإنذارا.لم يشك سامع أو قارئ في أن فنون الإعجاز في القرآن أكثر وأروع من أن تحصى أو يحاط بها)[50]. وخلاصة القول أن إعجاز القرآن ووجه التحدي فيه كما يروي الباقلاني واقع على مستوى نظم الحروف وما يليها من كلمات وجمل.

3-مكانة النص الإبداعي

سنتتبع هنا، موقف المؤلف حيال النص الإبداعي في ظل القرآن إذ لا يخفى على متصفح هذا الكتاب ذلك السبب الذي دعا صاحبه إلى إقحام نفسه في دراسة مزدوجة كان أساسه ظرف راهن صنعه بعض المفترين بمقاربتهم بين نسق الشعر ونسق القرآن. وذلك من خلال الموازنة بين النسقين والتي يرفضها مؤلف "إعجاز القرآن" في دراسته بالمرة، معوضا إياها بالمفارقة بين كلا النسقين.

إن هذه المفارقة وذلك وفق تصوري لها ضمن معطيات بعينها سيعمد الباقلاني إلى إبرازها لنا طيلة فصول كتابه بالتفريق بين الصناعة الآدمية والقرآن الكريم، ولو كان الرابط جليا كما كان الشأن مع البلاغة فإن المؤلف وجد لذلك تبريره ورفضه. رغم هذا فإننا سنقف على إشادة المؤلف بالفصاحة العربية وقوة بلاغة ذويها في أشعارهم وبقية فنون القول من خطب ورسائل، وهو إلى هذا يكبر تلك السليقة اللغوية البارعة لدى أهل العصر الأول فنجده يقول:(إن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن)[51]. بل إن تفوقهم في هذه الصنائع خرج عن الغرض الواحد من الشعر إلى أغراض شتى وكثرت المعارضات، وضربت الأسواق الشعرية ومع أن العرب برعوا في الخطب والرسائل بيد أن تفوقهم في الشعر وغلبة الشعر على صناعتهم كما يرى الباقلاني، ستجعله يقيم مفارقته بتحليل قصيدة امرئ القيس [52].

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل***بسقط اللوى بين الدخول فحومل وذلك من العصر الأول أي الجاهلي.إن تحليله لهذه القصيدة التي تعد من الغرر، ستطلعك على القبح بدل الجمال، وعلى الركاكة بدل الاستقامة. ذلك أن المؤلف منذ البداية

حكم ذوقه في تمييز مواطن الجمال وهيمنة هذه النزعة يقول عنها لانسون:(ولكم من أديب يرى في المنهج شبحا مخيفا وعدده أن لابد من الدفاع عن لذته الخاضعة وميله الشخصي ضد سطوته المميتة وفي الحق أن تلك المخاوف وهم باطل)[53] رغم أنه حاول إبداء بعض ما للقصيدة من محاسن ذكرها سلفه من اللغويين والنقاد، غير أن ذاتيته تقف خلفها تلك الأسباب الراهنة كما المحنا، جعلته يفسر تلك المواطن الجمالية من منطلق ذوقه، فترى أنت أن كل صورة تنقلب إلى كلام لا معنى له وحشو زائد لا يعني شيئا، بل سترى كيف أن حزن امرئ القيس الذي شحن به مطلع قصيدته، ولوعته، تنقلب إلى سخف زائد، وخروج الشاعر عن مروءته بانعدام غيرته على محبوبته، كأننا بالمؤلف قد نسي قاعدة النقاد التي حفظها لنا قدامة بن جعفر وهي أن أعذب الشعر أكذبه، وفي غضون ذلك يقحم المحلل عنصر اللغة الصارم, فيشير إلى الضمير المتصل في قول الشاعر: (رسمها ...) أي « ها » بدل « رسمه»، الذي يعود على المنزل، وأنما جاء الشاعر بالضمير فقط لإقامة الوزن، ليعصف بما تبقى من جمال. ولا يزال مع هذين البيتين ليطلعك على التتابع الممل لأسماء وحشية أربعة تشمل البيتين ويثبت لك أن هذا حشو زائد لا معنى له.

إذا كانت هذه الزيادة في اللفظ قد فعلت فعلها كيفما اتفق، فإن المؤلف لن يتزحزح بنقده حتى يظهرك على أخطاء في المعنى، كما هو الشأن في إشارة الشاعر إلى الطلل فهو في البيت الثاني يقول:(لم يعف ...) غير أنه يعود في بيت لاحق:(رسم دارس...) ولا مبرر عند المؤلف لهذا التناقض ويستمر هذا التحليل ليعصف مرة أخرى بيت كامل كما الشأن مع البيت الذي يقول فيه الشاعر:

كدأبك من أم الحويرث قبلها *** وجارتها أم الرباب بمأسل

إذ يعده صاحب التحليل، عديم الجدوى زائد لم يضف أي معنى، ولدى وقوفه على البيت الذي يليه والذي يتضمن معنى تضوع المسك من صويحبات امرئ القيس الوارد ذكرها في هذا البيت الذي جعله الباقلاني حشوا زائدا، لدى قيامهن، فالمحلل هنا يعجب من هذا الاستثناء ويعده نقصا لا مبرر له، وهو على ذلك يعيب عليه جملة من التكرارات اللغوية، ولا يرى لها أي سبب سوى إقامة الوزن، بل أنكر عليه بعض ألفاظ القوافي وعدها مسدا للقافية لا غير.

أما عن البلاغة، فإن المؤلف تخطاها أيضا بما أتيح له فهو لدى وقوفه على قول الشاعر: (وشحم كهداب الدمقس المفتل)، يجري عليها بعض الملاحظات اللغوية بين المشبه والمشبه به وكلها تشكك في صحة الصورة واستقامتها على هذا الوجه، ويفصل أمرها في النهاية على أنها سوقية لا محل لها. وإلى قول الشاعر:

(ومهما تأمر القلب يفعل)، يوشك المؤلف أن يقر بحسن هذه الاستعارة، لكنه سرعان ما يتراجع ليقول:وهل القلب يفعل؟ فيخرج بذلك عن نطاق الاستعارة كمجاز ناقدا إياها بالحقيقة. وإلى هذا فإن المحلل لما وقف بنا على صور بلاغية تحتمل الشحن ببراعة جمالية أقام لها مقارنات مماثلة من شعراء آخرين عاشوا في نفس العصر أوفي عصور لاحقة، أومن بيئات غير بيئة الشاعر، تلمس فيها بعد رقة بعد خشونة وتهذيبا بعد غلظة والحال لسان المقال، لأن التابع في صنعته غير المتبوع، والحضري غير البدوي، وإنما خرج الباقلاني إلى فكرة ما هو كائن من الصور وما سيكون كي يثبت لنا أن صناعة الشعر تتفاوت وفق معرفة كل شاعر لذلك جاء بما قال بن المعتز عن الثرية حتى يقلل من شأن صورة امرئ القيس، واسقط صور الليل بما قال النابغة في هذا الصدد وهكذا ضاعت مهمة الأداة البلاغية تحت وطأة الذوق الخاص بالباقلاني.

وحتى تقف بنفسك على تحليل الباقلاني لهذه الصورة فإننا نترك له المجال ليقول بعد تحليل عشرين بيتا:(ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتا وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب، لأنه لا يدعي على مثله أن كلامه كله متناقض ونضمه كله متباين، وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال أنه يتقدم فيه أحد من المتأخرين فضلا عن المتقدمين، وإنما قدم في شعره لأبيات قد برع فيها وبان حذقه بها، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسبا في الجودة متشابها في صحة المعنى واللفظ وقلنا أنه يتصرف بين وحشي غريب مستتكرا وعربية كالمهل مستنكر وبين كلام سليم متوسط وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى، وبين حكمة حسنة، وبين سخف مستشنع، ولهذا قال عز من قائل:"*ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا*)ابة-82-سورة النساء 54.(إذا كان هذا حال الأنساق الصغرى، فإن الأنساق الكبرى على مستوى القصيدة مضطربة في فصلها ووصلها – كما يرى الباقلاني نزرة الأبيات البارعة كثيرة الأبيات المضطربة. قبل الانتقال إلى النص الشعري الآخر، يجدر بنا أن نشير إلى أن المؤلف حشد نصوصا عديدة من الخطب والرسائل من آثار النبوة وكبار الصحابة والبلغاء، وهو هنا لم يعمد إلى

تحليل، وإنما ناقش الفكرة على هامشها وترك الحكم للقارئ. إذ أشار سعة البون بين القرآن وهذه الصناعة من خطبة تقتضي صاحبها أن يتقنها لأنه سيواجه بها موقف عظيمة، ومن رسائل تحمل كاتبها على الجادة لأنه يوجهها إلى ملك وقائد، وهو إلى ذلك ينبهنا إلى رفعة أسلوب الخطب النبوية ويرى أن ذلك راجع إلى نبوته " صلى الله عليه وسلم". ويختم هذا بقوله(وإن عرف أن جميع كلام الآدميين منهاج بجملته طريق، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت، نظرت أخرى وتأملته مرة ثانية فتراعي بعد موقعه وعالي موضعه ومحله- أي القرآن- وحكمت بواجب من اليقين، وثلج الصدر بأصل الدين)[55]. بما أن الفرق على مستوى النثر قائما سلفا، والبون شاسع لا يحتمل جدالا، حتى أن المؤلف لم يتكلف له تحليلا أو شيئا من الشرح والتفصيل. عليه يجدر بنا أن ننتقل إلى القصيدة الأخرى التي أكمل فيها الباقلاني تحليله. هذه القصيدة في هذه المرة ستكون للبحتري أشعر معاصري الباقلاني كما حكم له، سيعمد إلى تحليل أفضل قصائده كما يقر البحتري ذاته وهي قصيدته:

أهلا بذلكم الخيال المقبل*** فعلى الذين نهواه أو لم يفعل

لقد كان داعي الوقوف على هذا النص من هذا العصر، إثبات بطلان فكرة المنع التي نادى بها بعض المتكلمة هذه القصيدة بدورها سيندك ما بدا من محاسن بيانها وينهار ما جلي من مواطن جمالها، تحت ذوق بالغ الحس الذي سيبدو عن المؤلف.مجمل ذلك نأخذه من كلام خلص إليه الباقلاني بعد طول تحليل يقول:(شعره منقطع المعاني يفصل بينها، قليل التأني لتجويد الخروج والوصل وذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة... ويستأنف: ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شئ جيد)[56]. هذا رغم أن نص القصيدة جاء للغرض عينه وصاحبها من الفحول المقدمين. إذ يكون المؤلف بتحاليله هذه قد وضع الشعر، وهو محور براعة العرب حيث لا مكان.

خاتمة

إن منهج هذا الكتاب ورد ضمن آلية حوارية بديعة تذكرنا بما كان لهذه الآلية من كبير التفعيل لأعمال الرواد من الفلاسفة اليونان[57]، وإلى ذلك فقد اعتمد المؤلف فكرة التدرج إلى إصدار أحكامه.

وإلى أنه لم يقتحم موضوع الإعجاز إلا بعد أن مهد له بشتى السبل، فنلمس بذلك ما يماثل منهج الاستقراء وبما أن دراسة المؤلف كانت تخص أنساقا لغوية تمثلت في القرآن الكريم والصناعة العربية من الشعر والنثر، فقد حكمها إلى نسق البلاغة الذي بدا أنه الأداة الأكثر تداولا في فترة تأليف هذا الكتاب والموازنة للآمدي ومثيله أكبر دليل على هذا.

أما وجه التفرد الذي يبدو أن الباقلاني قد ظفر به فإنه سيتمثل أساسا في هذه المزاوجة بين الأسلوب القرآني والأسلوب البشري لأجل إثبات الإعجاز الرباني في تنزيله، وحتى يتحقق له ذلك فقد عمد إلى دراسة أساسها المفارقة كما أشرنا اقتضاها ظرف راهن كما أسلفنا الإشارة والتي ستؤدي بالإمام الفاضل كما يرى محمود شاكر إلى الوقوع في زلة لم يقصد إتيانها وفق هذا المقتضي إلا بسبب الرد على بعض المفترين الذين أرادوا الموازنة بين القرآن والشعر. ويمضي محمود شاكر في توضيح هذه الفكرة، حيث يرى أنه كان له من الأفضل أن ننطلق لدراسة الإعجاز القرآني بعد أن نطلع على مكنون البيان الذي إشتمل عليه الشعر الجاهلي، [58] حتى نعرف بذلك رفعة البيان القرآني. أما أن نلغي ما لهذا الشعر من خصائص البيان فإن ذلك يمنعنا من الوقوف على روعة البيان الذي جاء به القرآن الكريم .

بل إن الأستاذ محمود شاكر يرى أن علة التنكر للشعر الجاهلي التي لم تكن مقصودة عند الباقلاني وفق هذا الوجه، وقد عمد إليها الجرجاني هو الآخر وتناولها من هذه الزاوية، ستجر بلاءا على الشعر الجاهلي من حينها إلى يومنا هذا، إذا كان من أكبر نتائجها فكرة الانتحال التي ناد بها "مرجيليوث " (المستشرق الفرنسي) وأتبعه فيها طه حسين[59] ليكون فحوى هذه الفكرة التشكيك في النص الجاهلي شكلا ومضمونا وهذا الذي سيمتد إلى يومنا هذا إذ نجد أن أكبر شعراء العصر " أدونيس " يقول عن القصيدة الجاهلية أنها دون تأليف لا تلاحم في أجزائها[60]، وليس إطارا بنائي إنها قصيدة متحركة تتبع منحنى انفعاليا، وتمضي حيث يحملها شعور دائم الغير، إن تفككها الخارجي طبيعي إذا هو رداء الشعور المتحرك الداخلي ؟ إنها قصيدة ترسم أيام القلب إنها صورة بالكلمات عن المكان . ويستمر تعليق أدونيس في هذا الصدد ليقول: لا تقدم لنا القصيدة مفهوما للعالم، وإنما تقدم لنا عالما جماليا.ومن هذه المفاهيم كان طه حسين قد بنى إطار نظرية الانتحال ,حيث اعتبر أن الشعر الجاهلي لا يقدم لنا صورة عن الحياة في الجاهلية,دينية كانت أو سياسية أو عقلية بل ولا لغوية [61]. ومع ذلك يعود طه حسين

بعد أن طعن في الشعر الجاهلي سنة 1926 ليتراجع عما قال إيماءا من خلال مقالاته التي جمعت في كتاب " حديث الأربعاء "، حيث دافع عن شكل القصيدة الجاهلية وعن موروث الشعر الجاهلي، وإنما رأى أنه موروث تشوبه جملة من الفوضى تقتضي الترتيب. وعلى ذلك فإن الصراع يظل قائما بين مقر بجدوى الشعر الجاهلي ومنكر لها.

من جهة ثانية نجد أن الباقلاني قد عمد إلى البناء فزاده علوا وإلى الصرح فزاده رصوا، وذلك من خلال تناوله لفكرة نظم القرآن بالشرح والتفصيل والتمثيل حيث يقول في هذا الشأن شوقي ضيف: فقد رجع الجرجاني إلى فكرة النظم الذي نوه به الجاحظ وجعله مدار الإعجاز وقرأ ما انتهت إليه هذه الفكرة عند الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، ولقح نظمه بالنحو فتحقق له نسقا معينا، وليس هذا النسق إلا النظم من جهة والنحو من جهة، بل ليس النظم إلا هذا النحو وإلا قواعده وقوانينه[62]. ليكون بذلك نضج الثمرة التي أشار إليها الجاحظ وسقاها الباقلاني وعني بها الجرجاني فكانت قطفا يانعا ستظل الدراسات لا تحيد عنه متى كانت غايتها القرآن وصناعات العربية. إن وقوفنا على التراث العربي في لمحات خاطفة كهذه على ألا يكون صاحبها مقلدا فيجتر ما كان، فيضيع بذلك وقتا يجدر به أن ينفقه في صالح يجلب إليه منفعة، ولا أن يكون حاقدا فينهال على بنيان شيده السلف بما أوتوا من عبقرية يشهد عليها التاريخ فلا يكون له إلا الهدم والتحريف. وبين الاثنين لابد أن يكون المرء قادرا على أن يستشف من هذا التراث ما يعود عليه وعلى أمته وعصره بالصالح الأعم والفائدة الجمة، ولن يتهيأ له ذلك إلا بمقدار من العلم والمعرفة، المحكمة وفق منهج بعينه.

قائمة المراجع

1- النظرية الأدبية الحديثة، آن جيفرسون وديفيد روبي، ترجمة سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة، ص: 32.
2- مناهج النقد المعاصر، د: صلاح فضل، دار الآفاق العربية، (ط1، 1997) ص:81.
3- المرجع نفسه، ص:127.
4- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، أولي محمد، المركز الثقافي العربي، (ط 1990)، ص: 36.
5 -النظرية النقدية في كتب الإعجاز القرآني 3هـ إلى 5هـ، رسالة دكتوراه من إعداد السعيد خضراوي، إشراف عبد الله العشي وآمنة بلعلى، 2001/2000 .
6- الحيوان، الجاحظ المجلد الأول، شرح وتحقيق د /يحي الشامي، دار ومكتبة هلال، (ط3 1990) ص:51.
7- إعجاز القرآن، القاضي أبوبكر الباقلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده وشركاؤه، (ط4، 1978)، ص:6 .
8- المصدر نفسه، ص:2.
9- المصدر نفسه، ص: 8-9.
10- المصدر نفسه، ص:9.
11- المصدر نفسه، ص:92.
12- المصدر نفسه، ص: 101.
13- المصدر نفسه، ص:101.
14- المصدر نفسه، ص:111.
15- تاريخ الأدب العربي 3 العصر العباسي، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، (ط:3 منقحة)، ص:523.
16- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص:113.
17- المصدر نفسه، ص: 116.
18- المصدر نفسه، ص:117.
19- المصدر نفسه، ص:117.
20- المصدر نفسه، ص:183.
21- النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص:50.
22- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص:132.
23- قضايا الحداثة ومسائل أخرى في النقد الأدبي، د. محمد مصطفى بدوي، شرقيات للطباعة والنشر، (ط1، 1995)
24- ملاحظة: وردت هذه الأنماط في نكت الإعجاز للرماني.
25- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج1، ص:200.
26- المصدر نفسه، ص 205.
27- المصدر نفسه، ص 207.
28- المصدر نفسه، ص 208.
29- المصدر نفسه، ص 209.
30- المصدر نفسه، ص 209.
31- المصدر نفسه، ص: 210.
32- المصدر نفسه، ص: 213.
33- المصدر نفسه، ص: 225.
34- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف المصرية، ط1، ص:24.
35- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص:253.
36- المصدر نفسه، ص: 263.
37- المصدر نفسه، ص: 263-264.

38- المصدر نفسه، ص: 265.
39- المصدر نفسه، ص: 270.
40- المصدر نفسه، ص: 157.
41- من حديث الشعر والنثر, طه، حسين.
42- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2. ص:4.
43- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2، ص:160.
44- مرآة الإسلام، طه حسين، دار المعارف المصرية، ص:149.
45- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص:170.
46- مرآة الإسلام، طه حسين، ص:162.
47- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2، ص:62.
48- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر أحمد عصفور، دار المعارف المصرية، ص:291.
49- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2، ص:80.
50- مرآة الإسلام، طه حسين، ص:179.
51- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2، ص:170.
52- المصدر نفسه، ص:33.
53- منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون ومايبس، ت، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص:395.
54- إعجاز القرآن، الباقلاني، ج2، ص: 90.
55- المصدر نفسه، ص:240.
56- المصدر نفسه، ص:157.
57- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، د. محمد عبد الرحمن مرحبا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، منشورات عويدات، بيروت، باريس (ط3، 1983)، ص:114.
58- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تقديم محمود شاكر، ترجمة عبد الصابور شاهين, دار الفكر الجزائر.-دار الفكر دمشق سوريا.الطبعة الرابعة1987طبع بالجزائر,ص:40
59-من تاريخ الأدب العربي.العصر الجاهلي والعصر الإسلامي المجلد الأول: ص127دار العلم للملايين بيروت الطبعة3 مارس1978م.
60- مقدمة في الشعر العربي، أدونيس، ص:30.دون طبعة.
61-من تاريخ الأدب العربي. مرجع سابق,ص62.
62-د.شوقي ضيف، النقد.دار المعارف بمصر.ط3.ص:85.